المسافة السردية في القرآن الكريم (سورة يوسف مثالاً)

Narrative distance in the Holy Quran (Surat Yusuf as an example)

أ.د أركـان رحيـم جبـر م.د حسين حميد مجيد

Arkan Rahim Jaber Hussein Hamid Majeed

جامعة بغداد_ كلية العلوم الإسلامية، العراق

University of Baghdad, College of Islamic Sciences, Iraq

Arkan.hasan@cois.uobaghdad.edu.iq hussein.h@cois.uobaghdad.edu.iq

الملخص:

تعد الدراسات السردية من أهم الدراسات الأدبية في العصر الحديث، وذلك لما يمثله السرد من أهمية في الوجود الإنساني، فبوساطة السرد استطاعت الشعوب التواصل فيما بينها، وبوساطته تحقق التواصل بين الأجيال السابقة واللاحقة، فالسرد يعكس الجوانب الإنسانية بمختلف ألوانها؛ لذلك استعمله الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، بوصفه وسيلة مهمة، وأساسية في إيصال المعنى والغاية القرآنية، وقد حقق من خلاله أهداف الهداية والتذكير والموعظة والإفهام، فقد استعمل القرآن الكريم الكثير من الأساليب السردية، ونوع فيها كل بحسب الغرض المطلوب، وهذا ما دفعنا كغيرنا من الباحثين في الخوض في تحليل جزء يسير من تلك الاستعمالات السردية المتوافرة في النص الكريم، فحددت الدراسة البحث في كيفية الانتقال في المقام السردي، وتحديد المسافة بين من يرى، ومن يتكلم بحسب مفهوم المسافة السردية، التي طرحها جيرار جنيت في كتابه(خطاب الحكاية بحث في المنهج)، الذي حدد فيها الكيفيات، التي يتم بها نقل المادة السردية من خلال تحديد المسافة بين الراوي، والشخصيات، والعلاقة النصية التي تربطهما بالنص السردي.

الكلمات المفتاحية (السرد المنقول، السرد المروي، السرد المحول، سرد الأحداث، التعليقات السردية)

Abstract:

Narrative studies are considered one of the most important literary studies in the modern era, due to the importance that narrative represents in human existence. Through narrative, peoples were able to communicate with each other, and through it, communication was achieved between previous and subsequent generations. Narrative reflects the various aspects of humanity. Therefore, God Almighty used it in the Holy Qur'an, as an important and essential means of conveying the meaning and purpose of the Qur'an. Through it, He achieved the goals of guidance, reminder, admonition, and understanding. The Holy Qur'an used many narrative methods, each varying according to the desired purpose, and this is what prompted us, like others, to The researchers decided to delve into the analysis of a small part of those narrative uses available in the noble text. The study limited the investigation into how to move in the narrative position and determine the distance between the one who sees and the one who speaks according to the concept of narrative distance proposed by Gerard Gnette in his book (The Discourse of the Story: A Study in Method), which Determine the ways in which narrative material is conveyed by determining the distance between the narrator and the characters and the textual relationship that links them to the narrative text.

Keywords (conveyed narration , narrated narration , transformed narration , narration of events , narrative comments).

مقدمة:

لا يخفى على مشتغلي السرد الفرق بين من يرى، أو يتبنى وجهة نظر محددة، أو من يتخذ موقفاً محدداً، أو من يدلي برأي، وبين من يتكلم أو ينقل الكلام؛ لأن كل القضايا التي تتعلق بوجهات النظر والمواقف، والآراء تعود إلى مفهوم (من يرى) الذي تبناه جيرار جنيت، تحت عنوان الصيغة إذ يرى أن، الحكاية يمكنها أن تزود القارئ بما قل أو جل من التفاصيل، وبما قل أو جل من المباشرة، وأن تبدو على مسافة بعيدة أو قريبة مما ترويه، ويمكنها أيضاً أن تختار تنظيم الخبر السردي الذي تبلغه وعندها تبدو الحكاية متخذة حيال القصة هذا المنظور (جنيت، خطاب الحكاية بحث في المنهج، ١٩٩٧، الصفحات ١٧٧–١٧٨)، إذ يرى جنيت أن معظم الأعمال النظرية تعاني من خلط مزعج بين من يرى وبين من يتكلم، أي من السارد، ومن صاحب وجهة النظر؛ لذلك فصلهما في بحثين مستقلين فتناول في بحث الصيغة كل ما يخص وجهة النظر، وتناول في بحث الصوت كل ما يخص الراوي (جنيت، خطاب الحكاية، ١٩٩٧، صفحة ١٩٨) فتناول في فصل الصيغة السردية نوعين من السرد وهما، سرد

الأحداث، وسرد الأقوال، وسرد الأحداث عنده هو: نقل لما هو غير لفظي إلى ما هو لفظي، وفيه يكون حضوراً كبيراً للأحداث في مقابل غياب أكبر للراوي (جنيت، خطاب الحكاية بحث في المنهج، ١٩٩٧، الصفحات ١٨١-١٨٢)، وهذا ما يحيلنا من جهة أخرى على وجه من وجوه الصوت هو: درجة حضور المقام السردي (جنيت، خطاب الحكاية بحث في المنهج، ١٩٩٧، صفحة ١٨٢).

أما سرد الأقوال، فيقسمه إلى ثلاثة أقسام رابطاً إياه بالمسافة السردية بين الراوي والشخصية: القسم الأول، هو الخطاب المسرّد أو المروي، وهو أبعد الحالات مسافة وأكثرها اختزالاً، فالأمر لا يتعلق بأقوال الشخصية بل بأفكارها، فيمكن عده سرد أفكار، أو خطاباً داخلياً مسرداً (جنيت، خطاب الحكاية بحث في المنهج، ١٩٩٧، صفحة ١٨٧).

والقسم الثاني، هو الخطاب المحول، وله أسلوبان، أولهما: هو الأسلوب غير المباشر، وهو لا يقدم أي ضمانة للقارئ، أو أي إحساس بالأمانة الحرفية للأقوال المصرح بها (في الواقع)، فحضور السارد فيه أكثر تجلياً في تركيب الجملة بالذات، فيكثفها ويدمجها في خطابه الخاص، وثانيهما هو: الأسلوب غير المباشر الحر، وهو خلط بين خطاب الشخصية وخطاب السارد (جنيت، خطاب الحكاية بحث في المنهج، ١٩٩٧، صفحة ١٨٧)، والقسم الثالث، هو الخطاب المنقول: والذي يتظاهر فيه السارد بإعطاء الكلمة حرفياً لشخصيته، وقد يجدر تسميته الخطاب المباشر (جنيت، خطاب الحكاية بحث في المنهج، ١٩٩٧، صفحة ١٨٧).

أما فيما يتعلق في فصل الصوت، فقد تناول كل ما يخص الراوي، أو المتكلم أو السارد الذي يكون وسيطاً بين المتلقي والمادة السردية سواء أكانت هذه المادة شفوية أم كتابية، فالراوي وبحسب بعض التعريفات التي تناولت السرد بالدراسة والتفصيل، هو: ذلك الشخص الذي يقوم بالسرد، وهناك سارد واحد على الأقل لكل سرد ماثل في مستوى الحكي بنفسه مع المسرود له الذي يتلقى كلامه (برنس، المصطلح السردي (معجم مصطلحات)، ٢٠٠٣، صفحة ١١٦).

والراوي هو: ذلك الشخص الذي يروي الحكاية أو يخبر عنها، سواء أكانت حقيقية أو متخيلة، ولا يشترط أن يكون اسماً متعيناً، فقد يتوارى خلف صوت أو ضمير يصوغ بواسطته المروي (عبد الله، ٢٠٠٨، صفحة ٧)، وما يربط بين هاتين الفكرتين هو تحديد المسافة بين صاحب الرؤية، أو متبني وجهة النظر، وبين الناقل لهذه الرؤية، فقد تكون المسافة بينهما قريبة إلى الدرجة التي لا يعود الفصل بينهما سهلاً يسراً، وقد تبتعد المسافة بينهما، إذ يختلط المقامان السرديان بينهما، وهذا ما نوه عنه جنيت في فصل الصوت، فالمقام السردي: هو العلاقة بين السارد والفعل السردي (برنس، المصطلح السردي (معجم مصطلحات)، ٢٠٠٣، صفحة ٢١٨)، أي من يتكلم وما

موقعه من الكلام الذي ينقل وما موقفه منه، وبما أن القرآن الكريم هو كلام الله المنزل وهو نص (مقدس) فلابد أن نقر ابتداءً برجوع كامل ما ورد من الكلام إلى الله سبحانه وتعالى، ثم ندخل بعد ذلك إلى النص القرآني لنفكك البنيات التركيبية والسردية الصياغات الفنية والأدبية العالية التي جعلته متماسكاً رصيناً لا يمكن التلاعب به أو تحريفه؛ ولخصيصته الفنية لا نستغرب هذه الانتقالات الفنية والسردية على وجه التحديد لأنها تخص بحثنا هذا، فلم يستعمل الله سبحانه وتعالى أسلوباً سردياً واحداً في جميع آيات القرآن الكريم؛ وهذا ما جعلنا نقف عنده بالدرس والتحليل ، كالكثير من الدراسات التي تناولت القرآن الكريم بالدرس والتحليل، فقد استعمل الله سبحانه وتعالى نوعي السرد (سرد الأحداث , وسرد الأقوال) في سورة يوسف (موضع البحث) فتناول في سرد الأحداث مجمل الأحداث؛ لذلك اتسمت هذه الآيات المباركات بطابع السرعة السردية، وتناول سبحانه وتعالى في الآيات الأخريات (سرد الأقوال) بجميع أقسامه من سرد مروي، وسرد محول، وسرد منقول، فضلاً عن التعليقات السردية التي لم تخل منها السورة المباركة .

وتجدر الإشارة إلى وجود رسالة دكتوراه بعنوان (بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم، محمد شرف خضر، كلية الآداب، جامعة طنطا) تناولت هذه الدراسة في مبحثٍ بعنوان (الصيغة السردية) جميع سور القرآن الكريم المباركة ومن بينها (سورة يوسف) إلا أنها لم توفق في نظرنا في تحديد الأقسام السردية الموجودة في الآيات المباركات بالشكل الدقيق، إذ تعاملت مع الأقوال الذي وردت والتي تنسب إلى الشخصيات المتنوعة في سورة يوسف (كسرد منقول) وفي واقع الأمر هي ليست من السرد المنقول؛ لأنها حررت بصياغة وكلام الله سبحانه وتعالى ولم تنقل حرفياً، فيكف يمكننا أن نعدها سرداً منقولاً، وكان الأجدر بها أن تقف عند كل قول ورد بضمير المتكلم، ويعود إلى الله سبحانه وتعالى من قبيل (إنا أنزلنا، وأوحينا، و مكنا) وغيرها، فكان الأجدر بها أن تصنف هذه الأقوال في قسم السرد المنقول؛ لأنه من المعلوم، أنّ آيات القرآن الكريم وصلت إلى رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) عن طريق الوحي، ولم تصل عن طريق الله جل ذكره، بشكل مباشر، فيصبح كلام الله سبحانه وتعالى منقولاً عنه جل ثناؤه . فالقرآن نزل به الله تعالى على نبيه الأمين(ص) بواسطة جبرائيل وحياً منه، وقد بلغه النبي الكريم كما تلقاه وحياً من غير تصرف في ذلك (بحر العلوم، ٢٠١١، صفحة ١٢).

ولم تبين هذه الدراسة الفرق بين من يرى ومن يتكلم، ولم تبين المسافة بينهما ولم تقف عند المقام السردي للراوي والشخصيات؛ لذلك نرى أن هذه الدراسة جاءت للوقوف عند هذه الأقسام السردية وبينت مواضعها بشكل أكثر دقة من الدراسة التي سبقتها.

السرد بضمير المتكلم _ سرداً منقولاً عن الله عز وجل

يقول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه الكريم، في سورة يوسف في الآيات الأولى والثانية والثالثة: **((ألر تلك آيات الكتاب المبين (١) إنّا أنزلناه قرءاناً عربياً لعلكم تعقلون (٢))) (يوسف ١_٢)** فهاتين الآيتين الكريمتين بالإضافة إلى الآية الكريمة الثالثة التي تبدأ بضمير المتكلم (نحن) وهو ما يعرف عند (جينيت) بـ (السرد المنقول) وهو أحد أقسام (سرد الأقوال) تشكل منطلقاً مهماً لهذه السورة المباركة، التي يظهر فيها المقام السردي للذات الإلهية بشكل واضح وجلي عبر استعمال ضمير المتكلم بشكل مباشر، من دون تفعيل دور الراوي، أو أدوار الأصوات الأخرى، التي سنقف عندها في المحطات الأخرى من آيات السورة المباركة، إذ تشكل هذه التنويعات السردية الأساس البنائي الذي بنيت عليه سردياً السورة المباركة .

فالسرد في الآيات الثلاث الأولى، سرد مباشر(منقول) تكلم الله سبحانه وتعالى (عبر وسيط ناقل) مخاطباً نبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، إلا أن هذا القسم من (سرد الأقوال) لا يستمر على وتيرة واحدة في جميع آيات هذه السورة المباركة إذ ينقطع (السرد المنقول) في ما بعد الآية الثالثة، وتجدر الإشارة إلى أن في هذه الآية المباركة دلالة على أن كلام الله سبحانه محدث، وأنه غير الله؛ لأنه وصفه بالإنزال، وبأنه عربي ولا يوصف بذلك القديم سبحانه... والقصص تكون قرآناً وغير قرآن، والقصص ههنا بوحي القرآن (الطبرسي ا.، ١٩٩٧، صفحة ٢٧).

ويعود القص بضمير المتكلم للظهور مجدداً في الآية الثانية والعشرين، بقوله تعالى: **((ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين)) (يوسف ٢٢)**، فقد استعمله سبحانه وتعالى، عندما أراد أن يبين فضله وإحسانه على نبيه يوسف (عليه السلام) وكذلك ليضرب المثل لنبيه محمدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه مثلما جزى يوسف لإحسانه هو قادر على أن يجزي كل محسن، إذ يقول الله سبحانه تعالى : كما أتيت يوسف بطاعته لي الحكم والعلم ومكنته في الأرض واستنقذته من أيدي أخوته الذين أرادوا قتله، كذلك أجزي المحسنين (الطبري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان في تأويل القرآن/ تحقيق بشار عواد معروف ، عصام فارس الحرستاني، ١٩٩٤، صفحة ٣٤٠)، فهي تنبيه على أنه كان محسناً في عمله متقياً في عنفوان أمره، وإن الله آتاه الحكم والعلم جزاءً على إحسانه (الزمخشري، ١٩٩٨، صفحة ٢٦٦). ويقول صاحب الميزان: إن الله تعالى يجزي كل محسن _ على اختلاف صفات الإحسان _ شيئاً من الحكم والعلم (الطباطبائي م.، صفحة ٢٠١).

وقد اقتضت (الحكمة القرآنية) العودة إلى القسم السردي الأول من (السرد المنقول) بعد أن ابتدأت به السورة المباركة وهو صوت الراوي بمضير المتكلم الذي تتلاشى فيه المسافة السردية بين الراوي والمتكلم، وبالانتقال إلى الآية السادسة والخمسين، يستعيد الله سبحانه وتعالى سرد الأقوال بـ (السرد المنقول) مجدداً للظهور بضمير المتكلم، إذ ينبه سبحانه وتعالى نبيه محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) ويذكره من جديد بمقدرته عز وجل،

وبإحسانه، وفضله على يوسف بقوله سبحانه وتعالى : **((وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نُصيبُ برحمتنا من نشاء ولا نُضِيع أجر المحسنين)) (يوسف ٥٦)** . وهذا الأسلوب في سرد قصة يوسف وغيرها من القصص هو أسلوب قرآني يؤكد على أن وظيفة القرآن الكريم هي ليست وظيفة القص بحد ذاته، فهو ليس كتاباً تاريخياً، وليس كتاب قصص، وإنما أورد سبحانه وتعالى القصص في كتابة لحكمة أراد أن يعرضها؛ لذلك نلحظ أسلوبه سبحانه وتعالى في الدخول المباشر بين الحين والآخر في أثناء القص ليعلم متدبر القرآن، بأن الله سبحانه أراد في ذلك أن يبين إعجازه ومقدرته وأن يقدم الهداية والتذكير والتحذير لنبيه وللبشر أجمع.

فهذه الآية المباركة قريبة في معناها من الآية السابقة (الآية الثانية والعشرون)، على الرغم من التباعد التسلسلي بينهما؛ إلا أنها جاءت كتذكير، وتنبيه لنبي الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فكانت كذلك بضمير المتكلم، التي عبر فيها الله عز وجل عن منّه وإحسانه على يوسف من تمكينه وأهله في الأرض (أرض مصر) منازلاً حيث شاءوا، ولا سيما تمكين (يوسف) بعد الحبس والضيق الذي تعرض له، فقد أصابه الله عز وجل برحمته، وهو سبحانه وتعالى يوجه خطابه بشكل مباشر إلى نبيه محمدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) ويقول له: كما أصبنا يوسف بها سنصيبك ونحن لا نضيع أجر وجزاء من أحسن فأطاع الله سبحانه وتعالى (الطبري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن/ تحقيق بشار عواد معروف ، عصام فارس الحرستاني، ١٩٩٤، صفحة ٣٤٤) ، فكل مكان أراد أن يتخذه منزلاً ومتبوأً لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخوله تحت ملكه وسلطانه (الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامش التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١٩٩٨، صفحة ٢٦٨) والمراد أن الله سبحانه وتعالى إذا شاء أن يصيب برحمته أحداً لم يغلب في مشيته ولم يسع لأي مانع مفروض أن يمنع إصابته (الطباطبائي م.، صفحة ٢٠١).

وفي قوله تعالى: **((فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم)) (يوسف ٧٦)** . فما يجب التركيز عليه في هذه الآية المباركة هو قوله تعالى ((كذلك كدنا ليوسف)) إلى نهاية الآية المباركة، فالله سبحانه وتعالى أراد بهذا الدخول أن يبين، أنه لولا حكمته وقضاؤه لما أستطاع يوسف أن يسترد أخاه؛ ولما أستطاع أن يصل إلى ما وصل إليه من العز والجاه، فبين سبحانه وتعالى وذكّر بذلك في هذا الدخول المباشر.

ثم ينقطع هذا الأسلوب من السرد بعد الآية السادسة والسبعين، ليعاود الظهور في الآيات الثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة بعد المئة، بقوله سبحانه تعالى: **((ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون (١٠٢) ما أكثر الناس لو حرصت بمؤمنين (١٠٣) ما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين (١٠٤) كأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون (١٠٥))) (يوسف**

١٠٢_١٠٥) إذ يبين الله سبحانه وتعالى مقدرته وعلمه بالغيب، الذي لا يعلمه سواه، فهذه الأخبار التي نقلها الله سبحانه وتعالى إلى نبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يعلم بها وبتفاصيلها، وملابساتها، ومجرياتها غيره سبحانه وتعالى، فهي (من أنباء الغيب)، وبما أن الغيب لا يعلمه سواه سبحانه وتعالى؛ فلابد من السرد بضمير المتكلم؛ لأنه مختص بالله تعالى، ولا يخبر به غيره، فأورده جل ثناؤه بضمير المتكلم، ويستمر سبحانه وتعالى في الآيات التاليات بإخبار نبيه محمد بعلمه بما تخفي نفوس الناس، وبعلمه بإيمان القلوب، وهو أيضاً علم مختص بالله سبحانه وتعالى؛ لذلك استمر السرد بضمير المتكلم؛ وهذا ما يفسر سبب العودة إلى هذا الأسلوب من السرد، بعد الانقطاع الطويل ما بين الآيات (٧٦ _ ١٠٢ _ ١٠٣ _ ١٠٤ _ ١٠٥)

وفي الآيات، الثامنة، والتاسعة، والعاشرة بعد المئة، كذلك يستعمل فيهما الله عز وجل الكلام المباشر بقوله: **((قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين (١٠٨) وما أرسلنا من قبلك من إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى أ فلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أ فلا تعقلون (١٠٩) حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبُوا جاءهم نصرنا فنُجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين (١١٠))) (يوسف ١٠٦_ ١١٠).**

إذ يخاطب الله سبحانه وتعالى في الآية الثامنة بعد المئة، نبيه محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بشكل مباشر، وعلى الرغم من عدم وجود ضمير المتكلم، إلا أن فعل الأمر(قل) يتضمن ضمير المتكلم، لكونه كلاماً مباشراً لا يحتاج فيه المتكلم إلى استعمال الضمير الذي ينوب عنه، وقد استمر السرد بضمير المتكلم في الآيات الثلاث التاليات لهذه الآية المباركة، ولكن بظهور ضمير المتكلم، التي تعد خاتمة السورة المباركة، إذ نلاحظ أن سورة يوسف، ابتدأت بسرد الأقوال بـ (السرد المنقول) وتوسطت، وختمت به، تبعاً للحكمة القرآنية.

ونلاحظ أن جميع الآيات التي وردت بضمير المتكلم بـ (السرد المنقول) جاءت لتبين عظمة الله سبحانه وتعالى، ومقدرته، وفضله، وإحسانه على يوسف، وعلى كل من أطاع الله في أمره، فالله سبحانه وتعالى بين مقدرته بإنزال هذا القرآن المعجز بقوله (إنا أنزلنا هذا القرآن) وبين مقدرته على التمكين والتمليك ليوسف ولغيره من عباده الصالحين المخلصين، بقوله سبحانه وتعالى (كذلك مكنا ليوسف) وبين مقدرته ومعرفته بالغيب الذي لا يعلمه سواه بقوله (ذلك من أنباء الغيب نوحيه)، كذلك بين مقدرته بنصر رسله على أعدائهم بقوله (جاءهم نصرنا) فجميع هذه الآيات المباركات تلتقي في بيان عظمة الله ومقدرته سبحانه وتعالى ويمكننا أن نتبين من خلال احصاء آيات السورة المباركة كيفية بنائها وإحكامها بأسلوب السرد بضمير المتكلم:

عدد آيات السورة المباركة: ١١١ آية مباركة، عدد الآيات التي وردت بضمير المتكلم: ١٢آية مباركة (١_ ٢ _ ٣ _ ٢٢ _ ٥٦ _ ٧٦ _ ١٠٢ _ ١٠٣ _ ١٠٤ _ ١٠٥ _ ١٠٨ _ ١٠٩ _ ١١٠)

البداية: (١ _٢ _٣)

الوسط (٢٢ _ ٥٦ _ ٧٦)

النهاية (١٠٢ _١٠٣ _ ١٠٤ _ ١٠٥ _ ١٠٨ _ ١٠٩ _ ١١٠)

السرد بضمير الغائب، سرداً عن الله سبحانه وتعالى:

يظهر لنا في هذه المجموعة من الآيات المباركات قسم آخر من أقسام (سرد الأقوال) استعمله الله سبحانه وتعالى ليروي عنه، إذ يختلف في هذا القسم من السرد، المقام، والمسافة السرديان بين من يرى ومن يتكلم، ففي الآية الرابعة والعشرين، يستعمل الله سبحانه وتعالى صوتاً آخر، ليس صوته المباشر، وكأنه راوٍ ثانٍ، أو شاهداً يستعرض من خلاله قصة يوسف وما جرى له، وبينه وبين من هم معه بقوله تعالى: **((ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين)) (يوسف ٢٤) .**

فلو اجتزأنا الآية المباركة إلى قوله تعالى (برهان ربه) لوجدنا أنها تروي عن الله سبحانه وتعالى بضمير الغائب، إذ لم يقل الله جل ذكره (برهاني) على الرغم من أنه استعمل بعد هذه العبارة مباشرة، ضمير المتكلم فقال: (كذلك لنصرف)، وقال: في نفس الآية أيضاً (انه من عبادنا)، فالله سبحانه وتعالى عندما أراد أن يعرض الحدث كما هو، مع نبيه يوسف (عليه السلام) لم يستعمل السرد بضمير المتكلم، فقد أخبر سبحانه وتعالى في هذا الموضع عن هم يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رأى يوسف برهان ربه، وذلك آية من الله زجرته عن ركوب ما هم به يوسف من الفاحشة (الطبري ، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن، ١٩٩٤، صفحة ٣٤٤). فلولا أن رأى برهان ربه لخالطها (الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامش التنزيل وعيون الأقاويلفي وجوه التأويل، ١٩٩٨، صفحة ٢٦٨) ولولا ما أراه الله من البرهان لهم وكاد أن يفعل (الطباطبائي و الطبرسي، الميزان في تفسير القرآن، مجمع البيان في تفسير القرآن، الصفحات ١٢٨ – ١٦٥ و ٢٩٩).

وبالانتقال إلى الآية الرابعة والثلاثين، يقول الله جل ثناؤه: **((فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم)) (يوسف ٣٤)**، كذلك يروي لنا بضمير الغائب الذي يتكلم عن الله عز وجل، فالآية الكريمة تستعرض أحداثاً سابقةً حذفت بالفعل (أي دعاء يوسف لله بالاستجابة)؛ لأن الله ذكر الاستجابة ولم يذكر الدعاء، ولكنه

سبحانه وتعالى ذكر قول يوسف (وإلا تصرف عني) الذي اعتبره الزمخشري متضمناً معنى طلب الصرف والدعاء باللطف، إذ يقول سبحانه وتعالى : فاستجاب له الله دعاءه وخلصه منهن (الطبري و الزمخشري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن، و الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١٩٩٤، ١٩٩٨، صفحة ٣٥٢ و ٢٨٢)، ففي هذه الآية المباركة إخبار وهذا ما جعلها تأتي بأسلوب السرد بضمير الغائب وتأخذ سياق القص الطبيعي، الذي يروي عن أحداث حدثت بالفعل في زمن مضى، وكان الله سبحانه وتعالى الشاهد عليها.

أما ما ورد في الآية الثامنة والستين، التي تعتمد السرد بأسلوبين سرديين، الأول هو أسلوب السرد بضمير الغائب، والثاني هو أسلوب السرد بضمير المتكلم (سرداً منقولاً)، إذ يستعرض الله سبحانه وتعالى فيها خبر تمام مقدرته، وحتمية قضائه الذي لا يغيره شيء بقوله: **((ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجةً في نفس يعقوب قضها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون)) (يوسف ٦٨)**

فالآية في قسمها الأول إلى قوله تعالى (إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها) يستعمل سبحانه وتعالى فيها ضمير الغائب؛ ليبلغ عن كون أن ذلك الذي قام به يعقوب من توصيات لأولاده، بعدم الدخول من باب واحدٍ، والدخول من أبواب متفرقةٍ (ما كان يغني) أي لا يرد قضاء الله الذي قضاه فيهم فحتمه (من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها) إلا أنّهم قضوا وطراً ليعقوب بدخولهم ..فاطمأنت نفسه، فإن أراد الله بكم سوءاً لم ينفعكم ذلك التفريق، حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرقهم (الطبري، الزمخشري، الطباطبائي، و الطبرسي، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن و الكشاف عن حقائق غوامش التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل و الميزان في تفسير القرآن و مجمع البيان في تفسير القرآن، ١٩٩٤ و ١٩٩٨ و ١٩٩٧، الصفحات ٣٥٩ و ٢٠٦-٢٠٧ و ٢١٩ و ٣٣٢).

أما الآية السادسة بعد المئة، فقد أكد بها الله سبحانه وتعالى خبر عدم الإيمان، فجعله خبراً أخبر به، ولم يجعله كلاماً مباشراً، وذلك لعلمه سبحانه وتعالى مسبقاً بما يخفون من الشرك والإيمان، فسرد الآية المباركة بضمير الغائب، بقوله سبحانه وتعالى :**((وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)) (يوسف ١٠٦)**، فالملاحظ من جميع الآيات المباركة التي ورد ذكرها في هذا الأسلوب من السرد، أنها قد وظِفت للإخبار عن أحداث قصة يوسف، ولم توظف للإخبار عن أقوالهم، إذ لم يرد فيها قول واحد ليوسف، أو من معه من الشخصيات التي ورد ذكرها في السورة المباركة؛ ولأنه سبحانه وتعالى وظف أساليباً سرديةً أخرى لغرض سرد أقوالهم.

سرد أقوال الشخصيات _ بأسلوب السرد المروي

_ يوسف (عليه السلام):

لا تخلو السورة المباركة من المساحة الكافية التي استعرضت من خلالها أقوال شخصياتها المعروفة، إلا أنها لم تكن حرة بكامل أقوالها، ولم تُنقل جميع أقوالها، فقد نقل الله سبحانه وتعالى ما يخدم النص القرآني وما ينسجم مع سياقه، وترك ما لا حاجة إلى ذكره، فصيغت أقوال الشخصيات بأسلوبين بحسب مواقعهما، الأسلوب الأول هو أسلوب (السرد المروي) وهو سرد تبتعد فيه المسافة بين من يرى ومن يتكلم، وهو الأسلوب الذي سنتناوله في هذه الفقرة من البحث، والأسلوب الثاني هو أسلوب (السرد المحوّل) والذي سيرد ذكره في فقرة لاحقة من البحث، فعند تدبر الآيات (٣٧ _ ٣٨ _ ٤٧ _ ٤٨ _ ٤٩ _ ٥٥ _ ٦٢ _ ٧٩ _٩٢ _ ٩٣) يظهر لنا صوت يوسف (عليه السلام) واضحاً جلياً، ففي قوله تعالى: **((قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كفرون (٣٧) واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٣٨) يا صاحبي السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الوحد القهار (٣٩) ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٤٠) يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان))** **(يوسف ٣٧ _ ٤١).**

نلاحظ اختزالاً كبيراً لأقوال يوسف (عليه السلام) فالكلام الذي تكلم به مع صاحبي السجن هو كلام مروي بخلاصة مفادها: (لا يأتيكما) أيها الفتيان في منامكما: (طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله) في يقظتكما (قبل أن يأتيكما)، وما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، ما أنتم عليه من عبادة الأوثان إلا أسماء أنتم وآباؤكم سميتموها، أي اختلاق منكم وافتراء (الطبري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن، ١٩٩٤، الصفحات ٣٥٥-٣٥٦)، ويقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ((لما استعبراه ووصفاه بالإحسان، افترض ذلك، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وإنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما...وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة، إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية)) (الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١٩٩٨، صفحة ٣٨٤) فأنا خبير بذلك فليكن آية لصدقي فيما أدعوكما إليه من دين التوحيد (الطباطبائي و الطبرسي، الميزان في تفسير القرآن و مجمع البيان في تفسير القرآن، ١٩٩٧، صفحة ١٧٢، ١٨٢ و ٣١١)، ومهما اختلف تفسير هذه الآيات

المباركة ، نرى أن النتيجة واحدة وهي أن كلام وأقوال يوسف عليه السلام لم تكن أقوالاً منقولة وإنما أقوالاً مروية اختزل الله سبحانه وتعالى خلاصتها وسردها لنا بصيغة القرآن الكريم .

وفي قوله تعالى: **((وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيدهن إن ربي بكيدهن عليم)) (يوسف ٥٠)** وفي قوله تعالى: **((ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وإن الله لا يهدي كيد الخائنين (٥٢) وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن الله غفور رحيم (٥٣)) (يوسف ٥٢ _ ٥٣)** وفي قوله كذلك : **((قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم)) (يوسف ٥٥).**

نطلع على خلاصة أقوال يوسف، والكلام الذي دار بينه وبين الرسول الذي أرسله الملك، وبينه وبين الملك فرعون، حول ما جرى بين يوسف، و النسوة اللاتي كدن له، فهو سرد مروي اختزل مراسلات الملك ويوسف وحوارهما، حول ما آل إليه وضع يوسف في السجن، والسبب الذي من أجله أدخل يوسف إلى السجن، وبالعودة إلى تفسير الآيات يتبين لنا ذلك (الطبري، الزمخشري، الطباطبائي، و الطبرسي، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن و الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل و الميزان في تفسير القرآن و مجمع البيان في تفسير القرآن، ١٩٩٤ و ١٩٩٧، الصفحات ٣٦٤-٣٦٦ و ٢٩٣-٢٩٤ و ١٨٥ و ٣٢٠).

أما الآيات (٥٩ _٦٠_ ٦٢) فهي تسرد أقوال يوسف وأخوته ، بقوله تعالى : **((ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين (٥٩) فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون (٦٠))) (يوسف ٥٩_ ٦٠)**، **((وقال لفتينه اجعلوا بضعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون)) (يوسف ٦٢).**

وكذلك الآية التاسعة والسبعين يستكمل الله سبحانه وتعالى سرد أقوال يوسف (عليه السلام) بقوله: **((قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متعنا عنده وإنا إذاً لظالمون)) (يوسف ٧٩)**، حتى الآيتين الثانية والتسعين، والثالثة والتسعين، اللتين ينتهي الله سبحانه وتعالى فيهما من سرد أقوال يوسف بقوله جل ذكره: **((قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الرحمين (٩٢) اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين (٩٣))) (يوسف ٩٢).**

فقد اختزل الله سبحانه وتعالى أقوال يوسف لأخوته، فعندما جهزهم بما يحتاجونه من مؤنة دار بينهم حوار سألهم فيه عن أحوالهم وعن أهلهم، والدليل على ذلك هو طلبه منهم إحضار أخيهم من أبيهم، فهو لم يصرح لهم بشخصيته، ولا يستطيع أن يصرح؛ لكيلا يكشفوا أمره قبل مجيء أخيه؛ لذلك من المفترض أنه دار حوار بينهم،

فسألهم عن عدد الأخوة، وعن الأهل، وعن الأقارب، ولما أصبحوا يعلمون بعلمه بوجود أخ لهم من أبيهم، صار له الحق بأن يطالبهم بمجيئه وأن يضع ذلك شرطاً لتزويدهم بما يحتاجونه في المرة القادمة، وهكذا نفترض الحوارات الأخرى التي حصلت، ونقلها لنا القرآن الكريم (الطبري، الزمخشري، الطباطبائي، و الطبرسي، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن و الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل و الميزان في تفسير القرآن و مجمع البيان في تفسير القرآن، ١٩٩٤ و ١٩٩٨ و ١٩٩٧، صفحة ٣٨٦ و ٣٢٢ و ٢٣٦ و ٣٤٩).

_ يعقوب (عليه السلام):

يعد صوت يعقوب من الأصوات البارزة في سورة يوسف، فمنذ بداية السورة المباركة نطلع على أقوال يعقوب لبنيه، ففي الآيتين الخامسة والسادسة، يسرد لنا الله سبحانه وتعالى قول يعقوب لابنه يوسف (عليهما السلام) بقوله جل ذكره: **((قال يا بني لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدوٌ مبين (٥) وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى ءال يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيمٌ (٦))) (يوسف ٥_ ٦).**

وفي الآية الثانية عشر، يخبرنا الله عز وجل بما قاله يعقوب (عليه السلام) لأولاده عندما أرادوا أخذ يوسف معهم بعد أن اتفقوا على أذيته وهو لا يعلم بما اتفقوا عليه، بقوله سبحانه وتعالى : **((قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وانتم عنه غافلون)) (يوسف ١٢) ، ((أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون)** فهذه جملة في موضع الحال ، وتقديره : أخاف أن يأكله الذئب في حال كونكم ساهين عنه، مشغولين ببعض أشغالكم (الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ١٩٩٧، الصفحات ٢٨٨-٢٨٩).

وفي الآية الرابعة والستين، يروي لنا الله سبحانه وتعالى ما قاله يعقوب لبنيه بعد أن طلبوا منه أن يرسل أخاهم من أبيهم معهم ليزدادوا من الكيل الذي يكيله لهم يوسف بقوله تعالى: **((قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حفظاً وهو أرحم الرحمين)) (يوسف ٦٤).**

فهذه الآية المباركة اختزال لقول يعقوب: هل آمنكم على أخيكم من أبيكم، سؤال استنكاري يستنكر فيه يعقوب ما فعله بنيه بأخيهم من فعل معلوم لدى القارئ، ويستغرب كيف يطلبون منه تسليم أخيهم الثاني وهم الذين جاءوه بخبر يوسف، أي يريد القول: أنكم قلتم في يوسف (وإنا له لحافظون) كما تقولونه في أخيكم، ثم خنتم بضمانكم (الزمخشري ، الطباطبائي، و الطبري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل و

الميزان في تفسير القرآن و تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن، ١٩٩٨ و ١٩٩٤، صفحة ٣٠٣ و ٢١٤ و ٢٧٠).

_ أخوة يوسف

ولم تخل هذه السورة المباركة من سرد أقوال أخوة يوسف، إذ يسرد لنا سبحانه وتعالى أقوالهم في الآيات (٩_ ١٠ _١١ _ ١٢ _ ١٣ _ ١٤ _ ١٦ _ ٦٣_ ٦٥ _ ٧٢ _ ٧٤ _ ٧٨ _ ٨٠ _ ٨١ _ ٨٨_ ٩٦) فجميع هذه الآيات المباركات سردت لنا أقوال أخوة يوسف، ولكيلا يطول البحث في هذا الموضع؛ سنستعرض بعضاً من هذه الآيات الكريمات التي اختزلت الكثير من أقوالهم وأظهرت ما دعت الحاجة القرآنية الكريمة إلى ظهوره.

ففي قوله تعالى: **((اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صلحين (٩) قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فعلين (١٠))) (يوسف ٩_ ١٠).**

تحمل هاتان الآيتان المباركتان الكثير من الأقوال الصريحة التي اختزلت واستخلصت منها الخلاصة التي توصل إليها الأخوة بعد نقاشهم حول مصير أخيهم يوسف ، فلو افترضنا أن عدد الحاضرين في هذه المناقشة وهذه الحوارية أحد عشر رجلاً ، فلابد أن لكل رجل من هؤلاء الرجال رأي وقول يصرح به ، أو اقتراح يقترحه على أخوته في أمر يوسف، فستكون المحصلة أحد عشر نصاً على أقل تقدير، أو أحد عشر رأياً، أو حلاً مطروحاً في قضية يوسف، وبعد كل هذه الآراء والحوارات يتوصل الأخوة إلى الحلول الثلاثة التي ذكرها النص القرآني الكريم وهي (القتل ، أو الإبعاد، أو الإلقاء) .

فيقول صاحب الميزان ، ثم تذاكروا ثانياً في طريق التخلص من الرزية بطرح كل منهم ما هيأه من الخطة ويراه من الرأي فأشار بعضهم إلى لزوم قتل يوسف، وآخرون إلى طرحه أرضاً بعيدة لا يستطيع معه العودة إلى أبيه واللحاق بأهله فينسى بذلك اسمه، ويمحو رسمه، فيخلو وجه أبيهم لهم وينبسط حبه وحبائه فيهم (الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، الصفحات ٩٤-٩٥) وعن علي بن الحسين (عليهما السلام) (فلما خرجوا من منزلهم لحقهم مسرعاً فانتزعه من بين أيدهم (يعقوب انتزع يوسف) وضمه إليه واعتنقه وبكى ودفعه إليهم...فلما أمعنوا به...قالوا: نذبحه ونلقيه تحت هذه الشجرة فيأكله الذئب الليلة، فقال كبيرهم: ((لا تقتلوا يوسف ولكن ((ألقوه في غيابة الجب...)) ...فلما صار في قعر الجب ناداهم: يا ولد رومين أقرِئوا يعقوب السلام مني، فلما رأوا كلامه ، قال بعضهم لبعض: لا تزولوا من ههنا حتى تعلموا أنه قد مات (الطباطبائي، الطبرسي، الطبري، و الزمخشري، ١٩٩٧ و ١٩٩٤ و ١٩٩٨، صفحة ١١٥ و ٢٨٣ و ٣٣٢ و ٢٥٨).

وفي الآية الخامسة والستين، يقول سبحانه وتعالى: **((ولما فتحوا متعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضعتنا ردت إلينا ونميرُ أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيلٌ يسير)) (يوسف ٦٥).**

و نلاحظ كذلك حجم الاختزال لما ورد من خطاب بين أخوة يوسف وأبيهم عندما رجعوا إلى أهلهم فوجودا بضاعتهم ردت إليهم، فلو جزأنا هذه الآية المباركة إلى خمسة أجزاء وهي كالتالي (يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا) و (ونمير أهلنا) و (ونحفظ أخانا)، و (نزداد كيل بعير) و (ذلك كيل يسير) لوجدنا أن كل جزء من هذه الأجزاء هو حوار، ونقاش متكامل دار بين يعقوب وبنيه، ولا يخفى على القارئ أن القرآن الكريم لم يحدد من المتكلم من أخوة يوسف وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن كل وحدة كلامية تعود لواحد منهم؛ لأن المتكلم لم يكن واحداً، لذلك قال تعالى ذكره (قالوا) فجمعهم جميعهم في خطاب واحد مروي عنهم.

فالمفسر يتناول كلمة كلمة وكل كلمة هي حوار متكامل، إذ يفسر (ما نبغي) بقوله: أي ما نبغي في القول، ما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له إنا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته، ويستمر هكذا في تفسير كلمات الآية المباركة (الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التاويل، ١٩٩٨، صفحة ٣٠٤)، فهم أرادوا بهذا الكلام تطييب نفس أبيهم ليرضى بذهاب أخيهم معهم فيأمن من العزيز، وهم يحفظونه كما وعدوه (الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، صفحة ٢١٦)، أي فلا ينبغي أن نخاف على أخينا ممن قد أحسن إلينا هذا الإحسان. وقيل المراد: ما نريد منك دراهم تعطينها نرجع بها إليه، بل تكفينا في الرجوع إليه بضاعتنا هذه، فإن الملك إذا فعلنا ما أمرنا به في أخينا يفي وعدنا (الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ١٩٩٧، صفحة ٣٣٠).

_ الأصوات الأخرى

في هذه الآيات المباركات جمعٌ من بقية الأصوات التي ورد ذكرها في سورة يوسف، منهم عزيز مصر، وامرأته، والملك فرعون، والشاهد الذي شهد من أهل امرأة العزيز، وغيرهم من الأصوات؛ لذا سنقف عند بعض هذه الأصوات، ونشير إلى المواضع التي وردت فيها بقية الأصوات فيتمكن القارئ من الرجوع إليها وإمعان النظر فيها.

ففي الآيات الخامسة والعشرين، والسادسة والعشرين، والسابعة والعشرين، والثامنة والعشرين، والتاسعة والعشرين، نستمع إلى أصوات مختلفة ، إذ يدور الحوار بين يوسف والعزيز وامرأته والشاهد في آن واحد بقوله تعالى : **((واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر والفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم (٢٥) قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدَّ من قبل فصدقت وهو من الكذبين (٢٦) وإن كان قميصه قدَّ من دبر فكذبت وهو من الصدقين (٢٧) فلما رأى قميصه قد من**

دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم (٢٨) يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين (٢٩))) (يوسف ٢٥_ ٢٩).

فالوضع الذي كانت عليه امرأة العزيز من الإرباك والتوتر واللهفة، فضلاً عن الخوف؛ بسبب تفاجئها برؤية زوجها عزيز مصر، وهي بهذه الحال لا يمكنها بالتكلم بهذه البلاغة العالية، ولا يسمح لها بطرح السؤال على زوجها بهذه الطريقة التي تعبر عن قوة الموقف، و صدق القول، فالله سبحانه وتعالى صاغ لنا ما قالته لزوجها لدفع الشبهة عن نفسها، بهذه الصياغة الفنية العالية، وترك ما صدر عنها من كلام؛ لأنه لا يخدم السياق القرآني، وبالرجوع إلى تفسير هذه الآيات نجد الاختلاف بين ما صيغ من سرد لأقوال هذه الشخصيات، وببين ما دار من كلام بينهم إذ يقول: قالت امرأة العزيز لزوجها لما ألفياه عند الباب، فخافت أن يتهمها بالفجور: ما ثواب رجل أراد بامرأتك الزنا إلا أن يسجن في السجن، أو إلا عذاب أليم يقول: موجع (الطبري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن، ١٩٩٤، صفحة ٣٤٦) وفي البحث الروائي في تفسير الميزان كذلك يتبين لنا الفرق بين أسلوبين من الكلام: كلام الله عز وجل في كتابه الحكيم، وكلام يوسف على تقدير الرواية بقوله: فهم الملك بيوسف ليعذبه فقال له يوسف: ما أردت بأهلك سوءاً بل هي من راودتني عن نفسي فسل هذا الصبي أينا راود صاحبه عن نفسه (الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، صفحة ١٦٥).

وبقوله جل ثناؤه (وشهد شاهد من أهلها) لم يذكر سبحانه وتعالى من هذا الشاهد وكم، هو عمره، وما هي الطريقة التي تكلم بها، وكيف نطق بها، وما الصيغة التي تكلم بها؛ لأنها ليست مراد الحدث، فاختزل كلامه بقوله تعالى (إن كان قميصه قد من قبل) إلى نهاية الشهادة.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن قول العزيز: إن هذا الفعل من كيدكن _ أي صنيعكن، يعني من صنيع النساء، وقيل إنه خبر عن الشاهد أنه هو القائل ذلك (الطبري و الطبرسي، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن و مجمع البيان في تفسير القرآن، ١٩٩٤ و ١٩٩٧، صفحة ٣٤٧ و ٣٠٣).

وفي الآية الحادية والثلاثين، يقول سبحانه وتعالى: **((قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين)) (يوسف ٣٢)**، قالت امرأة العزيز للنسوة اللاتي قطعن أيدهن: فهذا الذي أصابكم في رؤيتكن إياه، وفي نظرة منكن نظرتن إليه ما أصابكن من ذهاب العقل وعزوب الفهم، حتى قطعتن أيدكن هو الذي لمتنني في حبي إياه وشغف فؤادي به (الطبري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن، ١٩٩٤، صفحة ٣٥١). ويقول الزمخشري ((قالت فذلك)): ولم تقل فهذا وهو حاضر؛ رفعاً لمنزلته في الحسن، واستحقاق أن يحب ويفتتن به، وربئاً بحاله واستبعاداً لمحله، ويجوز أن يكون

إشارة إلى المعنى بقولهن: عشقت عبدها الكنعاني، تقول: هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن، ثم لمتنني فيه (الزمخشري و الطباطبائي، الكشاف عن حقائق غوامش التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل و الميزان في تفسير القرآن، ١٩٩٨، صفحة ٢٨١ و ١٥١) ، والمعنى: هذا الذي أصابكن في رؤيته مرة واحدة من ذهاب العقل، فكيف عذلتنني في حبي إياه وأنا أنظر إليه آناء ليلي ونهاري ؟ (الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ١٩٩٧، صفحة ٣٠٨).

أما الآيات (٣٦ _ ٤٣ _ ٤٤_ ٤٦ _ ٥٠ _ ٥١ _ ٥٤ _ ٧٠ _ ٩٥) ففيها يستعرض الله سبحانه وتعالى الأصوات الأخرى، كصوت الملك، وصوت الحرس الذين نادوا بالسرقة، وصوت أهل القرية عند يعقوب (عليه السلام)، فيتضح من تفاسير هذه الآيات المباركات، أن كلام يوسف، وأبيه، وأخوته، وكل من تم سرد كلامه في هذه السورة المباركة، لم يكن كلاماً منقولاً بنصه وعبارته، وإنما صاغة الله سبحانه وتعالى بصياغته القرآنية الكريمة، التي بينت المسافة بين من يرى ومن يتكلم.

ونلاحظ كذلك أن هذا الانتقال بين أقسام السرد، الذي بنيت عليه السورة المباركة يتوافق مع كل متكلم غير الله عز وجل في القرآن الكريم؛ ولأن القرآن الكريم هو كتاب الله وكلامه عز وجل، فلا نجد كلاماً لغير الله منقولاً بصيغة (السرد المنقول) لأن كلام المخلوق ليس ككلام الخالق، ولو كان السرد منقولاً لكلام من ورد ذكره في القرآن الكريم؛ لوجد اختلاف وتفاوت في صياغة نصوص القرآن الكريم، وهذا ما لا يمكن حصوله؛ لأنه كتاب أحكمه الله وأعجز به البشر.

_ سرد الأقوال سرداً محولاً:

أما هذا القسم من سرد الأقوال، فلم تخلو منه هذه السورة المباركة، والذي تقترب فيه المسافة بين السارد والشخصيات بشكل كبير، إذ لا يعود الفصل بينهما سهلاً إلا مع دقة النظر، فتندمج فيه المقامات السردية بين السارد وشخصياته، ففي الآية الثامنة عشر، يقول سبحانه وتعالى: **((وجاءوا على قميصه بدم كذبٍ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ والله والمستعان على ما تصفون)) (يوسف ١٨)، فـ**نلاحظ أن نص الآية المباركة وسياقها يوحي من الوهلة الأولى إلى أن الكلام (منقول) أو(مروي) عن قول يعقوب لبنيه عندما جاءوا إليه بقميص أخيهم يوسف ملطخ بالدماء، وأن يعقوب هو من قال (دم كذب) ولكن هذه الصفة لا تعود إلى يعقوب، بل هي متعلقة بالله سبحانه وتعالى، يطلقها على ما فعله أخوة يوسف به، ويصف فعلهم بالكذب، فلم يكن يعقوبُ يعلم بكذبة الدم؛ بدليل قوله تعالى (قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً) فهو لا يعلم ما الأمر الذي قاموا بترتيبه وفعله، ولكنه لم يصدقهم، فكلمة (كذب) تكشف لنا التدخل الإلهي في هذا النص المبارك، إذ يندمج المقامان السرديان

بين مقام السارد (مقام الله) جل ثناؤه ومقام (المتكلم) نبيه يعقوب عليه السلام (الطبري و الزمخشري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن و الكشاف عن حقائق غوامش التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١٩٩٤ و ١٩٩٨، صفحة ٣٣٥ و ٢٦٢)، وفي الآية إشعار بأن القميص وعليه دم _ وقد نكر الدم للدلالة على هوان دلالته وضعفها على ما وصفوه (الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن).

وفي الآية الثانية والأربعين، مقامان سرديان ملتبسان يظهران عند تفكيك نص الآية المباركة، وتقسيمها إلى مقطعين يبدأ المقطع الأول بقوله تعالى: **((وقال للذي ظن أنه ناج منهما))** فلو أمعنا النظر في قوله تعالى**(ظن)** ربما نجد فيها تدخل الله بشكل خفي، فالسياق يعبر عن قول يوسف، لكن المقصد يعبر عن قصد الله تعالى، على الرغم من أن المفسر، يفسر هذا القول ب (علم) أنه ناج، لكننا نرى أنها عبارة صريحة تؤكد مقدرة الله عز وجل على تقليب الأمور، وحضوره سبحانه وتعالى في النص؛ ليثبت أن لا شيء يتم، إلا بإذنه تعالى؛ لذلك لم يقل سبحانه وتعالى(وقال للذي علم أنه ناج)؛ لأن الله على كل شيء قدير.

أما المقطع الثاني من الآية المباركة فواضح الحضور السردي للذات الإلهية فيه بقوله جل ذكره: **((فأنساه الشيطان ذكر ربه))** على الرغم من تعلق هذا النص من الآية المباركة، بما قبله مما يتعلق بيوسف عليه السلام، إذ يقول المفسر في ذلك: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن غفلة عرضت ليوسف من قبل الشيطان، نسي لها ذكر ربه الذي لو به استغاث لأسرع بما هو فيه خلاصه، ولكنه زل بها فأطال من أجلها في السجن حبسه، وأوجع لها عقوبته (الطبري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن، ١٩٩٤، صفحة ٣٥٩). ويقول الزمخشري: فأنسي الشرابي (أي الساقي) (ذكر ربه): أن يذكره لربه، وقيل: فأنسي يوسف ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره (الزمخشري و الطباطبائي، الكشاف عن حقائق غوامش التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل و الميزان في تفسير القرآن، ١٩٩٨، صفحة ٢٨٦ و ١٨١).

_ سرد الأحداث:

ما يميز هذه السورة المباركة هو احتواؤها على العناصر والمقومات المكتملة للقصة، فقد احتوت على الكثير من الأساليب السردية المتنوعة، على الرغم من كثافتها وإيجازها؛ لضرورة الحكمة القرآنية المعروفة بالإيجاز والتكثيف، وبما أن سرد الأحداث من المقومات المهمة للقص في القرآن الكريم، فلم تخل سورة يوسف من ذلك.

ففي الآيات (٣١ _ ٤٦ _ ٤٧_ ٤٨ _ ٤٩ _ ٧٦_ ٩٩ _ ١٠٠ _ ١٠١) يتجلى سرد الأحداث الذي يسرّع من الإيقاع السردي ويكثف حضور أكبر كم من الأحداث في أقل كم ممكن من النصوص، ففي قوله تعالى: **((فلما**

سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكأ وآتت كل وحدة منهن سكينا وقالت أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم)) (يوسف ٣١).

وفي قوله تعالى: **((يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرت سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون (٤٦) قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون (٤٧) ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تُحصنون (٤٨) ثم يأتي من بعد ذلك عام يغاث فيهه الناس وفيه يَعصِرون (٤٩))) (يوسف ٤٦ _٤٩).**

وفي قوله تعالى: **((فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم)) (يوسف ٧٦).**

وفي قوله تعالى: **((فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين (٩٩) ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو ومن بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين أخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم (١٠٠) رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً والحقني بالصلحين (١٠١))) (يوسف ٩٩_ ١٠١).**

سرد واضح للأحداث التي جر، وحدثت مع يوسف، والذي يميز هذا السرد هو الإيقاع السريع لسير الأحداث؛ لأن الله سبحانه وتعالى أراد بهذه الآيات المباركة عرضاً كاملاً، وموجزاً، وخلاصة لما جرى ليوسف (عليه السلام) وكيف اقتضت حكمته تعالى أن تسير الأمور مع يوسف، وكيف نجاه، ومكنه في الأرض ليتعظ ويعتبر كل ذي عقل، وحكمة وليبين لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كيف تعامل سبحانه وتعالى مع نبيه يوسف وكيف أحسن له وكيف جزاه على طاعته وإحسانه.

_ التعليقات السردية:

تضمنت سورة يوسف التعليقات السردية في بعض الآيات المباركات التي تدخل الله سبحانه وتعالى في سرد أقوالها، معلقاً، وموضحاً لما فيها، وذلك لاقتضاء حكمته جل ثناؤه، ففي قوله تعالى: **((وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين)) (يوسف ١٩).** فالله سبحانه وتعالى يعلق على صنيع أخوة يوسف به، وكيف زهدوا فيه، وتنازلوا عنه مقابل القليل من الدراهم كرهاً به، وسعياً للخلاص منه، فكان هذا التعليق تعليقاً استهجانياً من الله سبحانه وتعالى، يعبر فيه عن عدم قبوله على صنيعهم ذلك بأخيهم يوسف.

وكذلك في قوله تعالى: **((قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون))** **(يوسف ٧٧)**، فالله سبحانه وتعالى بتعليقه على ما دار في نفس يوسف عندما سمع أخوته يتهمونه بالسرقة ويذكرون ذلك، قال سبحانه وهو أعلم بما تخفي الصدور بقوله (فأسرها في نفسه ولم يبدها) فالله وحده يعلم ما تخفي النفوس؛ لذلك أراد سبحانه وتعالى أن يعرض هذه المعلومة في سياق القصة.

النتائج:

_ استعمل الله سبحانه وتعالى سرد الأقوال من السرد المنقول (المباشر) في الآيات التي تبين عظمته ومقدرته وإحاطته بكل شيء سبحانه وتعالى.

_ استعمل الله سبحانه وتعالى السرد بضمير الغائب، الذي يروي عنه سبحانه وتعالى في الآيات التي فيها إخبار عن قصة يوسف (عليه السلام).

_ استعمل الله سبحانه وتعالى سرد الأقوال من السرد المروي (غير المباشر) في الآيات التي نقل فيها كلام الشخصيات بصياغته، من دون أن يتدخل أو أن يعلق على أقوالها.

_ استعمل الله سبحانه وتعالى سرد الأقوال من السرد المحول (غير المباشر الحر) في الآيات التي فيها أقوال الشخصيات، مع تدخله سبحانه وتعالى بشكل غير مباشر.

_ استعمل الله سبحانه وتعالى سرد الأحداث في الآيات التي ذكر فيها الأحداث بشكل مجمل كتسريع للسرد، واستعراض لكامل أحداث القصة ونتائجها.

_ استعمل الله سبحانه وتعالى التعليقات السردية في الآيات التي ورد فيها تعليقه على بعض الأمور المهمة التي كان يجب أن يعلمها القارئ.

_ هذا التنوع الأسلوبي والصوتي، هو أسلوب قرآني يسري على جميع السور المباركة بنسب مختلفة، وبمواضع مختلفة، بحسب سياق كل سورة، و موضوعها لذلك يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النساء الآية (٨٢) **((أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً))** وتعني تناسق آي القرآن في الإجادة والإيفاء وقوة التعبير (معرفة، ٢٠١١، صفحة ١٥) .

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

المراجع

إبراهيم عبد الله. (٢٠٠٨). *موسوعة السرد العربي*. عمان– الأردن: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الطبري. (١٩٩٤). *تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن/ تحقيق بشار عواد معروف ، عصام فارس الحرستاني* (المجلد الأولى / المجلد الرابع). بيروت: مؤسسة الرسالة.

الزمخشري. (١٩٩٨). الكشاف عن حقائق غوامض لتنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض (الطبعة الأولى / المجلد الثالث). الرياض: مكتبة العبيكان.

الفضل بن محمد الطبرسي. (١٩٩٧). *مجمع البيان في تفسير القرآن* (المجلد الثانية / ج ٥). المجلس الأعلى للثقافة.

جيرار جنيت. (١٩٩٧). *خطاب الحكاية بحث في المنهج* (المجلد الثانية). المجلس الأعلى للثقافة.

جيرالد برنس. (٢٠٠٣). *المصطلح السردي (معجم مصطلحات)* (المجلد الأولى). المجلس الأعلى للثقافة.

عز الدين بحر العلوم. (٢٠١١). *الزواج في القرآن والسنة* (المجلد الأولى/ ج ٨). بيروت: دار الزهراء للطباعة والنشر.

محمد حسين الطباطبائي. (بلا تاريخ). *الميزان في تفسير القرآن* (المجلد ج ١١). قم: الحوزة العلمية في قم.

محمد هادي معرفة. (٢٠١١). *التمهيد في علوم القرآن* (المجلد الأولى /ج ٨). بيروت: دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع.